الفصل الثاني

هلاك الكفار ونجاة المؤمنين أو نصرهم في المعارك

إن قصة نوح وموسى عليهما السلام نموذج رفيع للتدليل على أن من أنواع التمكين هلاك الكفار ونجاة المؤمنين، وقصة نوح مع قومه منهج عظيم للدعاة إلى الله، وقصته ملأى بالدروس والعبر، ومما يكسبها أهمية خاصة ماتميزت به، ومن ذلك:

١ ـ أن نوحاً عليه السلام أول رسول إلى البشر، وكل أول له خصوصيته وميزته. .

2 ـ امتداد الزمن الذي قضاه في دعوة قومه (950 سنة).

3 ـ كونه من أولي العزم الذين ذكروا في القرآن.

4 ـ ورد اسمه كثيراً في القرآن الكريم، حيث بلغ (43) مرة في (29) سورة من سور القرآن، أي في ربع سور القرآن تقريباً، مع وروده باسمه في سورة نوح.

وأما قصة موسى عليه السلام مع فرعون، فتبين ضراوة الصراع بين الحق والباطل والهدى والضلال، والإيمان والكفر، والنور والظلام، وتسلط الأضواء على استكبار فرعون وتجبره واستعباده عباد الله، واستضعافهم، واتخاذهم خدماً وحشماً وعبيداً. وكيف أراد الله لبني إسرائيل أن يرد إليهم حريتهم المسلوبة، وكرامتهم المغصوبة، ومسجدهم الضائع، وعزهم المفقود. إن من يقف أمام إرادة الله هو عاجز ضعيف، وهو فاشل مهزوم. وإن أعداء الله أينما كانوا هم إلى هزيمة وخسارة وهوان، وتبين لنا كيف انتقم الله من فرعون ونصر وليه موسى عليه السلام وقومه.

وأما قصة طالوت، فتوضح مرحلة مرت بها أمة بني إسرائيل، فبعد أن وقعوا في المعاصي وانحرفوا عن منهج الله، وسلط الله عليهم الأعداء وأصاب بني إسرائيل ذل وخيم، ومرارة

أليمة، وهزيمة عظيمة، وأرادوا أن يغيروا واقعهم المهين، وأن يبدلوا ذلهم عزة وهزيمتهم نصراً، وعلموا أن السبيل لذلك هو الجهاد والقتال، فطلبوا من نبيهم أن يختار لهم ملكاً يتولى أمورهم، ويقودهم إلى العزة والنصر، ويقاتل لهم أعداءهم، في سبيل الله، فوقع خيار الله على طالوت، ليكون ملكاً عليهم، ومن ثم يقودهم إلى النصر والعزة والتحرير، فاعترض الملأ على نبيهم قائلين: أنى له الملك علينا، ونحن أحق بالملك منه، ولم يؤت سعة من المال؛ فبين لهم نبيهم أن الله اصطفاه عليكم، والله حكيم خبير، وأن الله زاده بسطة في العلم والجسم، وتسلم طالوت قيادة بني إسرائيل. وكانت قصة طالوت مع بني إسرائيل من أروع القصص القرآني في بيان سنن الله في النهوض بالأمم المستضعفة، وما هي السمات والصفات المطلوبة للقيادة التي تتصدى لمثل هذه الأعمال العظيمة، لتقوية الشعوب والنهوض بها نحو المعالي، وفق منهج رباني، ووسائل عملية وتربوية عميقة على معاني الطاعة والثبات والتضحية والفداء، من أجل العقيدة الصحيحة.

وفي سيرة النبيّ ﷺ نجد هذا النوع من التمكين، ألا وهو النصر على الأعداء واضحاً، فبعد أن هاجر ﷺ إلى المدينة قدَّر ظرفه وزمانه ومكانه، وجهَّز قوات جهادية حققت أهدافها القريبة والبعيدة، معتمداً على الله في ذلك، شارعاً في الأخذ بالأسباب التي أمره الله بها، فترك لنا معالم نيرة في مغازيه الميمونة ودروساً عظيمة في كيفية تحقيق النصر على الأعداء، والتمكين لدين الله تعالى، فبدأ بالسرايا، فحققت أهدافها، ومضى يحاصر قوى البغي والكفر والضلال حتى فتحت مكة، ومن ثم وحدت جزيرة العرب. وأثناء ذلك كان يوجه الضربات المحكمة إلى الوثنية في كل مكان، وإلى اليهود الذين نقضوا العهود، وإلى ملوك الأرض يدعوهم للإسلام، فترك البناء متيناً، وقام الخلفاء الراشدون من بعده ليتوسعوا بالإسلام شرقاً وغرباً، وهكذا توالت الأجيال لحمل الرسالة وأداء الأمانة، وكان تاريخ أمتنا ملآن بهذا النوع من التمكين، ففي عهد صلاح الدين كانت موقعة حطين وعلى يديه كان فتح القدس، وفي عهد يوسف بن تاشفين كانت معركة الزلاقة، وفي عهد محمد الفاتح كان فتح القسطنطينية، وأما في العصر الحديث، فالملحمة الجهادية بين الروس والأفغان انتهت بهزيمة الإلحاد، والمعارك بين الإسلام والنصرانية في جنوب السودان فتحت للمسلمين أبواب الشهادة والعزة، والنصر والتمكين، والصراع بين اليهود والمسلمين في فلسطين بين الكر والفر، وهكذا نجد دائماً عون الله لأهل التوحيد والإيمان على مر العصور وكر الدهور وتوالي الأزمان.

المبحث الأول

قصة نجاة نوح عليه السلام وهلاك قومه

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: 59].

إن ثوابت دعوة نوح عليه السلام، الدعوة إلى عبادة الله وتوحيده، والتحذير من عدم الاستجابة إلى توحيده.

فلم يستجب قومه إلى مادعاهم إليه، بل استكبروا وعتوا وتجبروا، قال سبحانه: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: 71].

وجاءت سورة هود لتبين لنا الحوار الطويل بينه وبين قومه، الذين حاججهم وجادلهم وأقام عليهم الحجة، وبين لهم طريق الهداية، حتى أجاب قومه بقولهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود: 32].

ثمّ بيّن الله له النهاية في هؤلاء: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [هود: 36 ـ 37].

لقد كان نوح عليه السلام صابراً وثابتاً في دعوة قومه إلى عبادة الله تعالى، فاتخذ معهم كافة الأساليب الدعوية المتنوعة في محاولة صادقة لهدايتهم، وتعبيدهم لله تعالى. قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾ [نوح: 5 ـ 9]

obeikandl.com

ومع هذا الجهد العظيم والصبر الجميل والثبات المنقطع النظير، والحرص المستمر إلا أن قومه رفضوا وامتنعوا من الإجابة وقالوا ماحكاه الله عنهم في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ [الشعراء: 111]، . ثم قالوا: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ﴾ [الشعراء: 116]. ولم يؤمن مع نوح إلا فئة قليلة من قومه، حتى زوجته وأحد أبنائه غرقوا في مستنقع الكفر الخبيث، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: 10]، وقال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [هود: 45]، وقال تعالى: ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ [هود: 40]. وفي نهاية المطاف وفي آخر مراحل الدعوة وبعد أن علم استحالة استجابة قومه لدعوة التوحيد قال كما قال عنه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [الشعراء: 117 ـ 118]، وقوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾ [القمر: 10]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: 26 ـ 27].

لقد استجاب الله لدعوة نوح عليه السلام ولقد أحسن نوح عليه السلام استعمال هذا السلاح العظيم الذي يغفل عنه الكثير من الدعاة العاملين.

قال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ﴿١٠﴾ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ﴿١١﴾ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ﴿١٣﴾ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿١٥﴾﴾ [القمر: 10 ـ 15]، لقد لبث قرابة عشرة قرون وكانت النتيجة:

1 ـ لم يؤمن من قومه إلا قليل.

2 ـ لم تؤمن زوجته ولا أحد أبنائه وهم أقرب الناس إليه، ومع ذلك فإنه يعد منتصراً، بل إنه حقق أعظم الانتصارات وتمثل ذلك:

1 ـ صبره وثباته طول هذه القرون، وعدم ميله إلى محاولات قومه ـ وحاشاه من ذلك ـ أو تأثره باستهزائهم وسخريتهم، قال تعالى: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ﴾ [هود: 38].

2 ـ حماية الله له من كيدهم ومؤامراتهم: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: 116]. ولم ينته نوح عن دعوة التوحيد وتحقيق معاني العبادة لله ومع ذلك ما استطاعوا إليه سبيلاً.

3 ـ إهلاك قومه الذين كذبوه بالغرق: ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: 64].

4 ـ نجاة نوح ومن آمن معه: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ [الأعراف: 64]، ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: 13 ـ 14]

5 ـ إن قصة انتصار نوح وإهلاك قومه أصبحت آية يعتبر بها، وجعل الله لنوح لسان صدق في الآخرين: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: 15]، ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسـراء: 3]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: 79]، ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: 33] وهكذا تتضح حقيقة النصر، من خلال قصة نوح عليه السلام، أن قوم نوح لم يكن في زمانهم على وجه البسيطة إلا هم، وقد كفروا بالله، وتمردوا على رسوله، سوى فئة قليلة هي التي آمنت به، فإن الله ـ سبحانه ـ أهلك جميع من في الأرض، يومئذ سوى نوح ومن آمن معه، حماية للمنهج الذي ذكر نوح أنه معرض للزوال إن بقي هؤلاء:

قال تعالى: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: 27]، فأهلك هؤلاء على كثرتهم من أجل عدد من البشر يحملون الحق ويدافعون عنه. لقد أهلك الله تعالى أهل الكفر والطغيان، ومكّن لأهل التوحيد والإيمان وأصبحوا على وجه البسيطة موحدين محققين لمعاني العبادة في الحياة[1].

قال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء: 3]، قال الإمام الطبري[2] رحمه الله:

«ذلك أن كل من على الأرض من بني آدم فهم من ذرية من حمله الله مع نوح في

(1) انظر: حقيقة الانتصار للدكتور ناصر العمر، ص 38، 39.

(2) هو الإمام المجتهد أبوجعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي الطبري البغدادي، ولد سنة 224 هـ، حفظ القرآن ورحل في طلب العلم وعمره 12 سنة، ولم يزل طالباً للعلم مولعاً به إلى أن مات. واشتهر بالتفسير والفقه والتاريخ ت 0 31 هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (14/ 267).

obeikandi.com

السفينة، قال قتادة[1]: والناس كلهم ذرية من أنجى الله من تلك السفينة، قال مجاهد[2]: بنوه ونساؤهم ونوح»[3].

قال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ﴾ [مريم: 58].

إن التمكين الفعلي والانتصار العظيم والإعزاز الكريم عندما يتمكن منهج رب العالمين من نفوس أهل الإيمان، وإن كانوا قلة، فالعبرة ليست بكثرة المؤمنين والمستجيبين للحق، وإنما في صفاء المنهج الرباني الذي يعتقده أولئك الأفراد سواء قلُّوا أم كثروا، ولذلك فإن بضعة نفر أو يزيدون، ولايتجاوزون ثلاثة عشر فرداً يحملون معنى التوحيد، ويحققون معنى العبودية، يهلك أهل الأرض جميعاً حماية لهؤلاء وللمنهج الذي يمثلونه ويحملونه، مادام أن هناك خطراً يهدد بزوالهم، ومن ثم زوال المنهج الذي يحملونه: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾ [نوح: 27].

إن هلاك الكافرين ونجاة المؤمنين، وسلامة المنهج الرباني القائمين عليه بما بذلوه من الصبر والثبات على ذلك نوع من أنواع التمكين التي يكرم الله بها من يشاء من عباده.

إن الله مكن لنوح عليه السلام ومن آمن به على وجه الأرض، فأمر السماء أن تقلع والماء أن يغيض في الأرض والسفينة أن تستوي على جبل الجودي تمكيناً لسفينة الإيمان وأهلها[4].

---

(1) هو قتادة بن دعامة بن عزيز أبو الخطاب السدوسي الأعمى الحافظ المفسر، عالم أهل البصرة، مات بواسط سنة 117 هـ. انظر: تذكرة الحفاظ (1/ 122).

(2) هو مجاهد بن جبر المكي أبو الحجاج المخزومي المقرئ المفسر الحافظ، مولى السائب بن أبي السائب. كان فقيها ورعاً عابداً. قال مجاهد: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات، أقف عند كل آية أسأله فيم نزلت وكيف كانت، توفي سنة 103هـ. انظر: طبقات الحفاظ للسيوطي، ص 42.

(3) انظر: تفسير الطبري (8/ 215).

(4) انظر: حقيقة الانتصار، ص 40.

المبحث الثاني

قصة موسى مع فرعون

قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص: 5 ـ 6].

لقد تطاول فرعون وعلا وأسرف في الأرض وأذل بني إسرائيل، فقتل الأولاد واستحيا النساء ظلماً وعلواً واستكباراً في الأرض، وأراد الله بحكمته ومشيئته وقدرته أن يمن على بني إسرائيل ويجعلهم ملوكاً وولاة، ويجعلهم يرثون الأرض من بعد فرعون ويمكن لهم بعد الذل والصغار، وينتقم من فرعون وهامان وجنودهما، ويريهم ماكانوا يخافونه من زوال ملكهم على رجل من بني إسرائيل[1].

وقال الإمام ابن كثير[2] في تفسيره: «لقد سلط على بني إسرائيل هذا الملك الجبار العتيد (فرعون) يستعملهم في أخس الأعمال، ويكدهم ليلاً ونهاراً في أشغال رعيته، ويقتل مع هذا أبناءهم ويستحيي نساءهم إهانة لهم واحتقاراً لهم وخوفاً من أن يوجد منهم الغلام الذي كان قد تخوف هو وأهل مملكته منه أن يوجد منهم غلام يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه. وكانت القبط قد تلقوا هذا من بني إسرائيل فيما كانوا يدرسونه من قول إبراهيم الخليل عليه السلام حين ورد الديار المصرية، وجرى له مع جبارها ما جرى حين أخذ سارة ليتخذها جارية فصانها الله منه ومنعه منها بقدرته وسلطانه، فبشر إبراهيم عليه السلام ولده أنه سيولد من صلبه وذريته من يكون هلاك ملك مصر على يديه، فكانت القبط تحدث بهذا عند فرعون

(1) انظر: تفسير الطبري (11/ 28، 29).

(2) هو الحافظ المؤرخ الفقيه المفسر إسماعيل بن عمر بن كثير بن درع، القرشي الدمشقي أبو الفداء، ولد سنة 701 هـ، طلب العلم من صغره ورحل من أجله، توفي في دمشق سنة 774 هـ، انظر: شذرات الذهب (6/ 231).

obeikandi.com

فاحترز فرعون من ذلك وأمر بقتل ذكور بني إسرائيل، ولن ينفع حذر من قدر، لأن أجل الله إذا جاء لايؤخر ولكل أجل كتاب.

أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى فما نفعه من ذلك، مع قدرة الملك العظيم الذي لا يخالف أمره القدري، ولايغلب بل نفذ حكمه، وجرى قلمه في القدم بأن يكون هلاك فرعون على يديه، بل يكون هذا الغلام الذي احترزت من وجوده وقتلت بسببه ألوفاً من الولدان إنما منشؤه ومرباه فراشك وفي دارك وغذاؤه من طعامك وأنت تربيه وتدلله وحتفك وهلاكك وهلاك جنودك على يديه؛ لتعلم أن رب السموات العلا هو القاهر الغالب العظيم القوي العزيز الشديد المحال الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن»[1].

وقال البقاعي[2] رحمه الله: ﴿وَنُمَكِّنَ﴾ أي نوقع التمكين ﴿لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي كلها لاسيما أرض مصر والشام، بإهلاك أعدائهم وتأييدهم بكليم الله، ثم الأنبياء من بعده عليهم الصلاة والسلام بحيث سلطهم بسببهم على من سواهم بما نؤيدهم به من الملائكة وتظهر لهم من الخوارق، ولما ذكر التمكين، ذكر أنه مع مغالبة الجبابرة إعلاماً بأنه أضخم تمكين[3].

وقال الشيخ محمد الأمين[4] في تفسيره لهذه الآية: قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ [القصص: 5] هو الكلمة في قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: 137]. ولم يبين هنا السبب الذي جعلهم به أئمة جمع إمام، أي قادة في الخير دعاة إليه على أظهر القولين. ولم يبين هنا أيضاً الشيء الذي جعلهم وارثيه، ولكنه بين جميع ذلك في غير هذا الموضع، فبين السبب الذي جعلهم به أئمة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: 24]. فالصبر واليقين هما السبب في ذلك، وبين الشيء الذي جعلهم له وارثين: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء: 57 ـ 59][5].

---

(1) انظر: تفسير ابن كثير (3/ 392).

(2) هو برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي صاحب نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، توفي عام 885 هـ. انظر مقدمة تفسيره.

(3) تفسير البقاعي (5/ 464، 465)

(4) هو الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي اشتهر بعلم الأصول والتفسير، درس في جامعة المدينة والمسجد النبوي، توفي عام 1393 هـ. انظر: أضواء البيان (1/ 3 ـ 99).

(5) انظر: أضواء البيان (6/ 451).

قال محمد الطاهر بن عاشور[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الله وصف فرعون وصفاً دلَّ على شدة تمكن الإفساد من خلقه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: 4]، فحصل تأكيد لمعنى تمكن الإفساد من فرعون؛ لأن فعله هذا اشتمل على مفاسد عظيمة:

المفسدة الأولى: التكبر والتجبر فإنه مفسدة نفسية عظيمة تتولد منها مفاسد جمّة من احتقار الناس والاستخفاف بحقوقهم وسوء معاشرتهم، وبث عداوته فيهم وخصوصاً إذا كان صاحبها حاكماً أو والياً فيعامل الناس بالغلظة، وفي ذلك بث الرعب في نفوسهم من بطشه وجبروته، فهذه الصفة هي أم المفاسد وجماعها.

المفسدة الثانية: جعل شعبه شيعاً قرب بعضهم وأبعد بعضهم، وتولدت بينهم مفاسد عظيمة من الحقد والحسد والوشاية والنميمة.

المفسدة الثالثة: جعل طائفة من أهل مملكته في ذل وصغار، واحتقار، عذبهم ونكل بهم ومنعهم من حقوقهم، وجعلهم عبيداً للطائفة المقربة لديه.

المفسدة الرابعة: اجتهد في قتل أطفال الطائفة المعذبة من الذكور؛ حتى لا يكون لبني إسرائيل قوة من رجال قبيلتهم وحتى يكون النفوذ في الأرض لقومه خاصة.

المفسدة الخامسة: كان يستحيي النساء أي يستبقي على حياة الإناث من الأطفال حتى يصبحن بغايا إذ ليس لهن أزواج. وكان قوم فرعون يحتقرونهن، ويأنفون أن يتزوجوا بهن، ولم يبق لهن حظ من رجال القوم إلا قضاء الشهوة، فانقلب استحياء البنات إلى مفسدة عظيمة تصل إلى منزلة تذبيح الأبناء»[2].

وعندما كان فرعون يستعلي ويتكبر ويتعجرف على بني إسرائيل، كانت إرادة الله في تلك الأحداث تريد أن تجعل من بني إسرائيل أمة عظيمة، وينتقم من فرعون وملئه، فقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القصص: 5 ـ 6].

﴿وَنُرِيدُ﴾ جيء بصيغة المضارع في حكاية إرادة مضت لاستحضار ذلك الوقت كأنه في الحال؛ لأن المعنى أن فرعون يطغى عليهم، والله يريد من ذلك الوقت إبطال عمله وجعلهم أمة عظيمة.

(1) هو محمد الطاهر بن عاشور، ولد بتونس 1879 هـ، وكان من كبار علماء الزيتونة، له مؤلفات كثيرة من أشهرها التحرير والتنوير في التفسير.
(2) التحرير والتنوير (20/ 68 ـ 70).

قوله: ﴿ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾ فيه تعليل، بأن الله رحيم بعباده، وينصر المستضعفين وخصّ بالذكر من المن أربعة أشياء عطفت على فعل ﴿نَّمُنَّ﴾ عطف الخاص على العام وهي: جعلهم أئمة، وجعلهم الوارثين، والتمكين لهم في الأرض وأن يكون زوال ملك فرعون على أيديهم في نعم أخرى جمة[1].

إن الله تعالى ـ من سننه الجارية في الأ مم والشعوب والمجتمعات والدول ـ إذا أراد شيئاً هيأ له أسبابه وأتى به شيئاً فشيئاً؛ بالتدرج لا دفعة واحدة، فعندما وصل الظلم إلى أقصى منتهاه، ووصل الاستضعاف إلى أسفل نقطة ممكنة، كانت تلك النقطة بداية التمكين لبني إسرائيل، وبدأت قصة التمكين وإنفاذ مشيئة الله عز وجل بالاهتمام بالرضيع في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ﴾ [القصص: 7].

ويظهر من خلال الآيات الكريمة أن الله عز وجل أوحى إلى أم موسى بأن ترضعه فإذا خافت عليه، فعليها أن ترميه في اليم، فالله عز وجل لا يكلف نفساً إلا وسعها، وعلى أهل الحق أن يبذلوا جهدهم، وهو إن كان قليلاً فإن الله عز وجل سوف يبارك فيه، وسوف يهيئ من الأسباب التي يمكّن بها لدينه وأهله.

إن سنن الله الكونية نافذة، وعلى أهل الإيمان ألا يتأخروا في الأخذ بالأسباب المتاحة، فهذا مبلغ جهد أم موسى في حماية موسى الرضيع، والذي تولى حمايته ونصره في الحقيقة هو الله عز وجل ذو الجلال والإكرام وكان يمكن أن تحصل الحماية والرعاية دون أسباب ولكن الله ـ من سنته ـ إذا أراد شيئاً هيأ له أسبابه، فألقى الله في قلب امرأة فرعون محبة موسى عليه السلام وكانت سبباً في نجاته من الذبح، وأعطاها الله من القدرة على الجدل والنقاش بحيث أقنعت فرعون بتركه لها.

ونرى في الآيات الكريمة لطف الله بأم موسى بذلك الإلهام الذي به سلم ابنها، ثم بتلك البشارة من الله لها برده إليها، التي لولاها لقضى عليها الحزن بسبب ولدها، وبذلك وغيره نعلم أن ألطاف الله على أوليائه لا تتصورها العقول، ولاتعبر عنها العبارات، وتأمل موقع هذه البشارة وإنه أتاها ابنها ترضعه جهراً، وتسمى أمه شرعاً وقدراً، وبذلك اطمأن قلبها وازداد إيمانها[2].

إن الله مكن حب موسى عليه السلام من قلب امرأة فرعون، فكان سبباً في تمكين موسى عليه السلام من ثدي أمه وحضنها الحنون.

---

(1) التحرير والتنوير (20/ 70، 71).

(2) انظر: تفسير السعدي (8/ 366).

ونرى في الآيات الكريمة إرشاداً مهماً ألا وهو: أن العبد وإن عرف أن القضاء والقدر حق، وأن وعد الله نافذ لابد منه، فإنه لا يهمل فعل الأسباب التي تنفع، فإن الأسباب والسعي فيها من قدر الله، فإن الله قد واعد أم موسى أن يرده عليها، ومع ذلك لما التقطه آل فرعون سعت بالأسباب، وأرسلت أخته لتقصه، وتعمل الأسباب المناسبة لتلك الحال(1).

وهذه إشارة قرآنية في قوله: ﴿قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: 11] إلى الأخذ بالأسباب، والحذر والاهتمام بالتربية الأمنية العالية، خصوصاً للأمة التي تسعى للتخلص من الظلم والجبروت وكبرياء المتسلطين، بل إن من أسباب نجاح الحركات التي تعمل لتحرير شعوبها من أغلال الحكام الظالمين، نجاحها في الجوانب الأمنية، ونرى من خلال الآيات الكريمة: أن الأمة المستضعفة، ولو بلغت من الضعف ما بلغت، لاينبغي أن يستولي عليها الكسل عن السعي في حقوقها، ولا اليأس من الارتقاء إلى أعلى الأمور، خصوصاً إذا كانوا مظلومين، كما استنقذ الله أمة بني إسرائيل على ضعفها واستعبادها لفرعون وملئهم منهم، ومكنهم في الأرض وملكهم بلادهم(2).

وكان من إعداد الله تعالى لموسى عليه السلام أن تربى في قصر فرعون بين مظاهر الترف ومباهج الملك والسلطان، نشأ كما ينشأ أبناء الملوك. وهكذا زالت من قلب موسى مهابة الملوك والأغنياء، ولم يخف على موسى أنه دخيل على أهل فرعون، وأنه يرجع في أصله الحقيقي إلى يعقوب عليه السلام، فعندما بلغ أشده واستوى أكرمه الله بالحكمة والعلم، لكونه من المحسنين، وذات يوم عند الظهيرة وجد رجلين يقتتلان، أحدهما من قومه، والآخر من قوم فرعون، فطلب الإسرائيلي من موسى نصرته فتدخل موسى فوكز المصري فقضى عليه، وهذا يدل على قوة موسى عليه السلام وشدة غضبه ويعبّر أيضاً عما كان في نفسه من شعور بالضيق والظلم من فرعون وقومه، ولكن موسى عليه السلام لم يقصد قتل القبطي، ولذلك ندم واسترجع وعزاها إلى الشيطان وغوايته، ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: 15].

ثم توجه إلى ربه طالباً مغفرته وعفوه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ واستجاب الله إلى ضراعته واستغفاره ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: 16]. لقد أصبح موسى عليه السلام خائفاً يترقب في المدينة، وإذ بالمعركة الثانية بين الإسرائيلي والفرعوني،

(1) انظر: تفسير السعدي (8/ 367، 368).
(2) المصدر نفسه (8/ 367).

وتدخل موسى عليه السلام لفض النزاع ووجه لومه إلى الذي من بني قومه وقال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: 18] إلا أن الإسرائيلي ظن موسى يريد أن يبطش به، فوجه له تهمة وموسى بريء منها: ﴿أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: 19].

إن موسى عليه السلام كان يرى أن المعارك الجانبية لاتفيد قومه ولذلك وصف الذي من شيعته بأنه غويٌّ: أي بعراكه هذا الذي لا ينتهي واشتباكه الذي لا يثمر إلا إثارة الثائرة على بني إسرائيل، وهم عن الثورة الكاملة عاجزون، وعن الحركة المثمرة ضعفاء. فلا قيمة لمثل هذه الاشتباكات التي تضر ولا تنفع ولا تفيد(1).

وهذا درس عميق يفيد العاملين الذين يسعون لتمكين دين الله عليهم أن يبتعدوا عن المعارك الجانبية، وأن يوحدوا صفهم، ويجمعوا قوتهم لساعة الصفر التي يعلو فيها نجم الإيمان وتنطمس فيها رايات الكفر والطغيان.

لقد تسرب خبر قتل موسى عليه السلام للقبطي، واجتمع الفراعنة للبت في أمر موسى الذي ظهر لهم أنه رمز لثورة تحارب الظلم وتسعى لعز بني إسرائيل وقرروا إلقاء القبض عليه.

وهنا جاء دور رجل تعاطف مع الحق والعدل الذي يحمله موسى عليه السلام، فأسرع لإنذاره ونصحه، وهنا إشارة قرآنية نحو الاهتمام بالحضور الأمني داخل المؤسسات الفرعونية والاستفادة من المعلومات التي تنير طريق الدعاة في حركتهم المباركة.

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾ [القصص: 20]، لقد أكرم الله موسى عليه السلام بهذه المعلومات النافعة وقرر أن يهاجر من بلاد الفراعنة.

وهذا إرشاد قرآني لمن خاف التلف بالقتل بغير حق في موضع، فلا يلقي بيده إلى التهلكة ويستسلم للهلاك، بل يفر من ذلك الموضع مع القدرة كما فعل موسى عليه السلام، كما أن فيه توجيهاً عند ارتكاب إحدى المفسدتين بأن يتعين ارتكاب الأخف منهما، دفعاً لما هو أعظم وأخطر، فإن موسى لما دار الأمر بين بقائه في مصر ولكنه يقتل، أو ذهابه إلى بعض البلدان البعيدة التي لايعرف الطريق إليها، وليس معه دليل يدله غير هداية ربه، ومعلوم أنها أرجى للسلامة، لاجرم آثرها موسى(2).

(1) قصص الرحمن في ظلال القرآن لأحمد فائز (3/ 64).
(2) انظر: تفسير السعدي (8/ 638).

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢)﴾ [القصص: 21 ـ 22]، ونلمح شخصية موسى عليه السلام فريداً وحيداً مطارداً في الطرق الصحراوية في اتجاه مدين جنوبي الشام وشمالي الحجاز. مسافات شاسعة، وأبعاد مترامية، لازاد ولا استعداد، فقد خرج من المدينة خائفاً يترقب، وخرج منزعجاً بنذارة الرجل الناصح. ونلمح إلى جانب هذا نفسه متوجهة إلى ربه مستسلمة له، متطلعة إلى هداه[1]: ﴿عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: 22].

كانت رحلة طويلة من الرعاية والتوجيه، ومن التلقي والتجريب، قبل وحي الله له بالنبوة: «تجربة الرعاية والحب والتدليل وتجربة الاندفاع تحت ضغط الغيظ الحبيس وتجربة الندم والتحرج والاستغفار وتجربة الخوف والمطاردة والفزع وتجربة الغربة والوحدة والرجوع. وتجربة الخدمة ورعي الغنم بعد حياة القصور وما يتخلل هذه التجارب الضخمة من شتى التجرب الصغيرة، والمشاعر المتباينة، والخوالج والخواطر، والإدراك والمعرفة إلى جانب ما آتاه الله حين بلغ أشده من العلم والحكمة. إن الرسالة تكليف ضخم شاق متعدد الجوانب والتبعات، يحتاج إلى زاد ضخم من التجارب والإدراك والمعرفة والتذوق في واقع الحياة العملي، إلى جانب هبة الله اللدنية، ووحيه وتوجيهه للقلب والضمير»[2].

إن الله تعالى أراد أن يربي موسى عليه السلام بالأحداث قبل الرسالة ولهذا دخل بقدرة الله إلى مجتمع الرعاة، مستشعراً النعمة في أن يكون راعي غنم يجد القوت والمأوى بعد الخوف والجوع والمطاردة والمشقة.

وعاش مع البسطاء في أخلاقهم وعاداتهم وخشونتهم وفقرهم وهذا كله تمرين له على تكاليف الدعوة التي سيتحملها.

إن التجارب الميدانية أقوى وأفيد في تربية النفوس البشرية من قراءة الكتب والمجلدات والجرائد ومن الندوات والحلقات الهادئة البعيدة عن المحن والشدائد والصعاب.

إن الشعوب التي تربت على الذل والخنوع، والمهانة والقسوة، في العادة تفقد القدرة على التفكير والتدبير وتنتظر من يقودها نحو حريتها وكرامتها وعزتها.

وإن هذا القرآن الكريم ليمد الطلائع المتحفزة نحو التغيير بخبرات الأنبياء والمرسلين والذين سعوا لتحرير شعوبهم من الظلم والجبروت والطغيان وتضع أيديهم على مفاصل التغيير

---

(1) انظر: قصص الرحمن في ظلال القرآن (3/ 54. 55).
(2) قصص الرحمن في ظلال القرآن (3/ 64).

في الأمم والشعوب وكيفية السعي بها من الضعف ومن دياجير الظلام وأغلال العبودية للعبيد إلى القوة ونور الحريات، وعبادة الواحد الديان.

إن تجربة موسى عليه السلام في تغيير الشعوب من أضخم التجارب فقد واجه بدعوته المباركة أعتى ملوك الأرض في زمانه، وأقدمهم عرشاً، وأثبتهم ملكاً، وأعرقهم حضارة، وأشدهم تعبداً للخلق واستعلاء في الأرض.

لقد حان وقت خلاص بني إسرائيل من الظلم والاضطهاد والعسف والجور وأكمل موسى عليه السلام مدته في أهل مدين، وعزم على التكليف الرباني بالرسالة والنهوض بالشعب المستضعف من قبل رب العالمين لموسى الكليم وأمده المولى عز وجل بالمعجزات الواضحة والبراهين الدامغة، والأدلة الساطعة.

وأمره بالذهاب إلى القوم الفاسقين؛ لإقامة الحجة على الفراعين وتخليص بني إسرائيل من ظل العبودية، وظلم العباد وقسوة الفراعنة؛ حتى يعبدوا الله أحراراً، ولم يتردد موسى عليه السلام في طلب العون من مولاه وربه ومبتغاه، قال سيد رحمه الله: «لقد استجاب ربه رجاءه وشد عضده بأخيه، وزاده على ما رجاه البشارة والتطمين ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ فهما لن يذهبا مجردين إلى فرعون الجبار، إنما يذهبان إليه مزودين بسلطان لايقف له في الأرض سلطان، ولاتنالهما معه كف طاغية ولاجبار ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾وحولكما من سلطان الله سياج ولكما منه حصن وملاذ.

ولاتقف البشارة إلى هذا الحد، ولكنها الغلبة للحق، والغلبة لآيات الله يجابهان بها الطغاة، فإذا هي وحدها السلاح القوي، وأداة النصر والغلبة ﴿بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القصص: 35]»[1].

إن موسى عليه السلام باشر في تنفيذ أمر ربه سبحانه وتعالى وأيده بالمعجزات وصدع بكلمة الحق أمام فرعون الطاغية الجبار، وأقام عليه الحجة والبراهين، والأدلة على صدق رسالته وتعرض فرعون وقومه بالأخذ بالسنين والنقص في الثمرات وابتلاهم الله بالقمل والضفادع والدم وغير ذلك.

ولم يؤمن الجبار العنيد بل اتهم موسى الكليم بالسحر وقرر أن يجمع كل السحرة للوقوف أمام دعوة الحق التي يقودها رسول الله موسى عليه السلام.

---

(1) في ظلال القرآن (5/ 2693).

واجتمع الفريقان لميقات يوم معلوم، وبدأ السجال وألقى السحرة إفكهم وخداعهم ثم عرج موسى عليه السلام على باطلهم بالحق المبين، بإلقائه العصا التي انقلبت إلى حية تسعى، فإذا هي تلقف ما يأفكون وكانت الجولة والصولة.

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأعراف: 117 - 119]

قال صاحب الظلال: «إنه الباطل ينتفش، ويسحر العيون، ويسترهب القلوب ويخيل إلى الكثيرين أنه غالب، وأنه جارف، وأنه محق، وما هو إلا أن يواجه الحق الهادئ الواثق حتى ينفثئ كالفقاعة، وينكمش كالقنفذ، وينطفئ كشعلة الهشيم، وإذا الحق راجح الوزن ثابت القواعد عميق الجذور، والتعبير القرآني هنا يلقي هذه الظلال، وهو يصور الحق واقعاً ذا ثقل ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾ وثبت واستقر وذهب ماعداه فلم يعدله وجود ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وغلب الباطل والمبطلون وذلوا وصغروا وانكمشوا بعد الزهو الذي كان يبهر العيون ﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ ولكن المفاجأة لم تختم بعد والمشهد مايزال يحمل مفاجأة كبرى: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف: 121 - 122].

إنها صولة الحق في الضمائر، ونور الحق في المشاعر، ولمسة الحق للقلوب المهيأة لتلقي الحق والنور واليقين»[1].

لقد احتج فرعون على إيمان السحرة وأرغد وأزبد، لأنهم آمنوا بدون إذنه: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ [الأعراف: 123] كأنما كان عليهم أن يستأذنوه في أن تنتفض قلوبهم للحق، وهم أنفسهم لاسلطان لهم عليها، أو يستأذنوه في أن ترتعش وجداناتهم، وهم أنفسهم لا يملكون من أمرها شيئاً، ولكنه الطاغوت جاهل غير مطموس، وهو في الوقت ذاته متعجرف متكبر مغرور.

ثم إنه الفزع على العرش المهدد والسلطان المهزوز، والمسألة واضحة المعالم إنها دعوة موسى إلى ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هي التي تزعج وتخيف، إنه لا بقاء ولا قرار لحكم الطواغيت مع الدعوة إلى رب العالمين، وهم إنما يقوم ملكهم على تنحية ربوبية الله للبشر بتنحية شريعته وإقامة أنفسهم أرباباً من دون الله يشرعون للناس ما يشاءون، ويعبّدون الناس لما يشرعون، إنهما منهجان لا يجتمعان، أو هما دينان لا يجتمعان أو هما ربان لا يجتمعان وهكذا أطلق

(1) في ظلال القرآن (3/ 1350).

فرعون ذلك التوعد الوحشي الفظيع: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأعراف: 123 ـ 124].

إنه التعذيب والتشويه والتنكيل وسيلة الطواغيت في مواجهة الحق الذي لايملكون دفعه بالحجة والبرهان، وعدة الباطل في وجه الحق الصريح.

ولكن النفس البشرية حين تستعلن فيها حقيقة الإيمان تستعلي على قوة الأرض، وتستهين ببأس الطغاة، وتنتصر فيها العقيدة على الحياة، وتحتقر الفناء الزائل إلى جوار الخلود المقيم، إنها لاتقف لتسأل ماذا ستأخذ وماذا ستدع؛ ماذا ستقبض وماذا ستدفع؛ ماذا ستخسر وماذا ستكسب؛ وماذا ستلقى في الطريق من صعاب وأشواك وتضحيات؛ لأن الأفق المشرق الوضيء أمامها هناك، لاتنظر إلى شيء في الطريق[1].

قالوا: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف: 125 ـ 126]، لقد أقام موسى عليه السلام الحجج الدامغة والبراهين الساطعة على فرعون الطاغية المتكبر وطلب منه أن يرسل معه بني إسرائيل، فامتنع وشرع للكيد لموسى وقومه وكانت النتيجة أن تمكن الإيمان من قلب السحرة وأعلنوها صيحة مدوية في آفاق الأرض: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه: 72 ـ 73].

لقد انتقم فرعون من السحرة الذين آمنوا، وصلبوا في جذوع النخل، وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وتشاور الملأ من القوم مع زعيمهم الطاغية وقرر الأخير مضاعفة العذاب والانتقام من الشعب المستضعف الذي بدأ يزحف نحو النور والحرية والكرامة والتوحيد الصحيح.

لقد حاور موسى عليه السلام فرعون الطاغية، وساجل سحرته، وكانت محاولته لمعالجة الوضع من فوق؛ لتحقيق تغيير أشمل، ولكن سرعان ما تبين أن الجدار الفرعوني لايخترق ولايستمال ولا يحيَّد ولا يكسب، حتى بعد أن كسب المعركة عقدياً وفكرياً وسياسياً، حين لقفت عصاه عصى السحرة فكان لابد من الخروج ببني إسرائيل خلسة، وباستخدام أسلوب التمويه حتى يكسب بعض الوقت قبل اكتشاف أثرهم واللحاق بهم، فالمواجهة كانت تعني الهلاك، بل فشل الفرار كان يعني الهلاك كذلك.

(1) في ظلال القرآن (3/ 1351، 1352).

وكان لابد من التوجه نحو الصحراء، حتى يمنع اللحاق بهم ويصلوا إلى أرض الميعاد، بل كل هذا المجهود الفذ الذي قام به موسى عليه السلام لتخليص قومه من الذل والخنوع والاستعباد ماكان لينجح لولا توفيق الله عز وجل، ومعجزة شق البحر، وإغراق فرعون وجنوده وهم يكادون يمسكون بالهاربين[1].

لقد كان للأثر السياسي والاجتماعي ومظاهر البيئة الخارجية والداخلية تأثيراً في اتخاذ أسلوب الهجرة السرية لموسى وقومه، وعلى الشعوب المستضعفة أن تعمل ما في جهدها وطاقتها ووسعها وتوقن أن نصر الله قادم ما دامت تريد أن تعبد الخلاق العليم على نهجه وشرعه ودينه القويم. لقد حان وقت هلاك فرعون اللعين ونجاة موسى الكليم ومن معه من المؤمنين:

قال تعالى: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾ [الشعراء: 52 ـ 68].

إن الآيات الكريمة توضح لنا سنة من سنن الله الماضية، والجارية في المجتمعات والشعوب والأمم ألا وهي سنة إنجاء المؤمنين المصدقين من أوليائه، المعترفين برسالة رسله وأنبيائه، وإهلاك الكافرين المكذبين لهم من أعدائه، وتتضح سنة أخرى ألا وهي سنة الاستدراج، وكيف أن المولى عز وجل قرب فرعون وجنوده وأدناهم بل وسلب عقولهم بحيث أنهم تابعوا موسى وقومه، ونقف مع الرسول الكريم في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ فهنا دلالة مهمة ألا وهي: أن الرسل هم أوثق الناس بنصر الله عز وجل ووعده، فلو ضاقت الأمور، وشكَّ الناس في وعد الله بالنصر والفرج فإن الرسل هم أوثق الناس بنصر الله.

إن فرعون الطاغية حاول أن يرفض الاستسلام لآيات الله ومشيئته وتكبر وتجبر وتغطرس

---

(1) انظر: في نظريات التغيير لمنير شفيق، ص 1.

obeikandi.com

وهذه هي النهاية: استدرج بعيداً عن عرشه وقصره وسلطانه، وأصبح من المغرقين، وأصبح وقومه أثراً بعد عين، وبدأ نجم المستضعفين في الصعود: إلا أن سنين القمع والظلم وضعف العقيدة لازال أثرها في نفوس بني إسرائيل. إلا أن هذا الانتصار العظيم لموسى الكليم على الطاغية اللئيم نوع من أنواع التمكين التي ذكرت في القرآن الكريم، وكان خطوة نحو التمكين الأكمل والنصر الأعظم الذي تم في عصر داود وسليمان عليهما السلام.

obeikandl.com

المبحث الثالث

قصة طالوت عليه السلام مع بني إسرائيل

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ
ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ
الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا
وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦)
وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ
الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ
عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ
وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ
سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ
إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا
مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا
مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو
اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)
وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا
وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ
وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ
بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ
آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢)﴾ [البقرة: 246 ـ 252].

إن قصة طالوت عليه السلام توضح نوعاً من أنواع التمكين؛ ألا وهو نصر الله للمؤمنين على الكافرين في المعارك.

obeikandl.com

وهذه القصة وقعت أحداثها بعد دخولهم الأرض المقدسة؛ في فترة من فترات حياتهم بعد أن انحرفوا عن منهج الله، سلط الله عليهم من يضطهدهم ويهزمهم؛ بسبب ذنوبهم ومعاصيهم، وقد سلب الله منهم التابوت الذي فيه سكينة من الله، وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون.

وقد شعر القوم بالذل ومرارة الهزيمة والهوان، وكان هذا الشعور عند الجميع، العامة والملأ المالكون فيهم. فأرادوا أن يغيروا واقعهم الذليل، وأن يبدلوا ذلهم عزة وهزيمتهم نصراً. وعلموا أن السبيل الوحيد لذلك هو الجهاد والقتال؛ لذلك لجأ الملأ الحاكمون فيهم إلى نبيهم، وفزعوا إليه، وطلبوا منه أن يختار لهم ملكاً يتولى أمورهم، ويقودهم إلى العزة والنصرة، ويقاتل لهم أعداءهم في سبيل الله، ويبدو أن ذلك النبيّ كان يعلم طبيعتهم المائعة وهمتهم الرخوة، وأنهم عندما يؤمرون بالقتال، فسوف ينكصون عنه، ويقعدون عن خوضه، فقال لهم: أخشى عليكم الامتناع عن أمر الله عندما يأمركم بالجهاد، فردوا بحماسة بأنهم عازمون وبينوا الاسباب التي تدعو إلى قتال أعدائهم فبعد ذلك سأل نبيهم ربه، فأوحى إليهم أن طالوت ملكهم، فاحتجوا بحجج واهية نسفها لهم نبيهم، وعندما جاء وقت الجد والكفاح والقتال والجهاد، بدأوا في التساقط ولم يصبر مع طالوت إلا فئة قليلة سمعت وأطاعت، واعتمدت على خالقها، فنصرهم الله على أعدائهم. ولقد وقف العلماء على هذه القصة العظيمة يدرسونها، ويغترفون من بحرها العميق دروساً مفيدة في تكوين الأفراد وقيادة الجماعات وإحياء الشعوب والسعي بها نحو التمكين ومن أهم هذه الدروس والعبر[1]:

أولاً: مبهمات هذه القصة:

نلاحظ في هذه القصة مبهمات كثيرة لم يتعرض لها القرآن؛ لأنه لافائدة في ذكرها، وإنما ذكر المولى عز وجل ما يفيد المسلمين وأهل النظر والاعتبار.

إننا في قصة طالوت نرى مبهمات كثيرة منها:

1 ـ الزمان الذي وقعت فيه قصة طالوت، فكل مايؤخذ من الآيات أنها وقعت لبني إسرائيل من بعد موسى، يعني بعد إقامتهم في فلسطين. أما تحديد السنة أو الفترة أو الحالة التي كان عليها بنو إسرائيل، فهذا لايمكن تحديده.

2 ـ اسم النبيّ الذي طلبوا منه أن يبعث لهم ملكاً. فقد يكون شمعون أو صمويل وقد

(1) انظر: مع قصص السابقين في القرآن (1/ 295، 296).

يكون غيره. فلا نجعل أحداً من الأنبياء إلا بنص صريح؛ لاحتمال ألا يكون نبياً. وبذلك نؤمن بنبوة غير النبيّ وهذا لايجوز.

3 - السبب الذي دفعهم ليطلبوا من نبيهم ذلك الطلب.

4 - نسب طالوت، وبداية أمره، وتفصيلاته قبل تملكه عليهم.

5 - تفصيلات ببسطة طالوت في العلم والجسم.

6 - تفصيلات بملك طالوت عليهم.

7 - التابوت وقصته وتاريخه عندهم ومقاساته، وتفصيلات السكينة والبقية التي فيه، التي تركها آل موسى وآل هارون وغير ذلك من المبهمات.

والعجيب أن بعض المفسرين والمؤرخين والكتاب والمحدثين لم يقفوا عند هذا البيان القرآني والنبوي، فذهبوا إلى الإسرائيليات، وطلبوا منها حل تلك المبهمات، وتفصيل تلك الأحداث، ولم يقدموا لنا علماً ولا فائدة ولا عبرة.

وبذلك تضيع جهود وأوقات في غير محلها، ويتركون عرض القرآن وما احتواه من دروس ودلالات وعبر. فالقصة هذه مثلاً:

فيها دروس للدعاة في التعامل مع الآخرين، ودروس للمصلحين الذين يريدون تغيير الواقع السيئ الذي تعيشه الأمة. ودروس للمجاهدين الذين يعملون على تبديل الذل إلى عزة والهزيمة إلى نصر. ودروس للذين يعتمدون على الجماهير، ويصدِّقون اندفاعهم وحماستهم، ويضعون على أساسها خططهم وبرامجهم، فتتخلى عنهم الجماهير وقت الحاجة. ودروس في التربية الفردية والجماعية، ودروس في الضبط، والحزم، والامتحان، ودروس في الجهاد والقتال وخوض المعركة، والتوجه إلى الله والاستنصار به، وعدم الرعب والهلع من قوة الأعداء. وفيها دروس في أسس اختيار الحكام والمسؤولين، وما هي مواصفات الحكام المطلوبة. إن هذه القصة ملآنة بالدروس والعبر في مجال الدعوة والداعية، والحاكم والمحكوم، والجندي والقائد، وفي مجال الإيمان والعقيدة، والدعوة والجهاد، والإصلاح والتغيير، والتوجيه والتربية، والسياسة والولاية، والحكم والسيادة.

إن كثيراً من المفسرين ملأوا كتبهم بتيه الإسرائيليات، والخرافات، والأساطير، وتجاوزوا كثيراً من الدروس والدلالات[1].

---

(1) مع قصص السابقين في القرآن (1/ 304، 305).

obeikandl.com

إن هذا العصر يتطلب من العلماء أن يبتعدوا عن الترف الفكري والعلمي، لأننا مطالبون بالإصلاح والدعوة والتغيير، كما أن علينا مسؤوليات عظيمة، لتغيير واقع الأمة من الحضيض التي هي فيه إلى قمة العزة والتمكين التي يريدها الله لها.

ثانياً: أهم السنن في حياة الأمم والشعوب التي يمكن استخلاصها في هذه القصة:

حاول الشيخ محمد رشيد[1] - رحمه الله - أن يتأمل في هذه القصة ويستنبط منها أهم السنن الاجتماعية في حياة الأمم، والمجتمعات، والشعوب، وذكر منها:

السُنَّة الأولى: إن الأمم إذا اعتدي على استقلالها، وأوقع الأعداء بها فهضموا حقوقها، تتنبه مشاعرها لدفع الضيم، فتسعى للوحدة التي يمثلها الزعيم العادل، فتتوجه إلى طلبه، كما وقع من بني إسرائيل، بعد تنكيل أهل فلسطين بهم.

السُنَّة الثانية: إن شعور الأمة بوجوب حفظ حقوقها وصيانة استقلالها، يكون موجوداً عند خاصتها وأهل الفكر والرأي فيها. فالملأ من بني إسرائيل، هم الذين طلبوا الملك.

السُنَّة الثالثة: متى عظم الشعور بوجوب حفظ حقوق الأمة، ومحاربة أعدائها عند خواص الأمة، فإنه لا يلبث أن يسري إلى عامتها، حتى إذا خرجت من طور الفكر والشعور إلى طور العمل والظهور، انكشف عجز الأدعياء، ولم ينفع إلا صدق الصادقين.

السُنَّة الرابعة: من شأن الأمم الاختلاف في اختيار الرئيس، والاختلاف مدعاة للتفرق، فلابد من مرجِّح ترضى به الأمة، كما طلبت بنو إسرائيل من نبيهم اختيار ملك لهم، فكان هو المرجح. والمرجح عند المسلمين هم أهل الحل والعقد منهم.

السُنَّة الخامسة: إن الناس لايتفقون على التقليد أو الاتباع فيما يرونه مخالفاً لمصلحتهم الاجتماعية؛ ولذلك اختلف بنو إسرائيل على نبيهم في جعل طالوت ملكاً عليهم، واحتجوا على ذلك بما لاينهض حجة إلا في ظن المنكرين. ومن عجيب أمر الناس أن كلاً منهم يحسب أنه على صواب في السياسة ونظام الاجتماع في الأمم والدول.

السُنَّة السادسة: إن الأمم في طور الجهل ترى أن أحق الناس بالملك والزعامة أصحاب

---

(1) هو محمد رشيد رضا القلموني البغدادي الأصل، الحسيني النسب، صاحب مجلة المنار، وداعية التجديد والإصلاح، وله تفسير اسمه: تفسير القرآن الحكيم، ومشهور باسم تفسير المنار، وهو غير كامل، انتهى مؤلفه إلى الآية (101) من سورة يوسف، توفي سنة 1353 هـ. انظر: الأعلام للزركلي (6/ 126) تفسير المنار (7/ 305، 306).

الثروة الواسعة، كما في قول المنكرين على طالوت ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ فهذا الاعتقاد من السنن العامة في الأمم الجاهلية.

السُّنَّة السابعة: إن الشروط التي ينبغي اعتبارها في الاختيار للملك هي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة 247]، فيما يأتي:

ا ـ الاستعداد الفطري للشخص ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ﴾.

2 ـ السعة في العلم الذي يكون به التدبير ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ﴾.

3 ـ بسطة الجسم المعبر بها عن صحته، وكمال قواه المستلزم ذلك صحة الفكر ﴿... وَٱلْجِسْمِ﴾.

4 ـ توفيق الله تعالى لأسباب له، وهو المعبر عنه بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ...﴾.

السُّنَّة الثامنة: هي ما أفاده قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾.

فمشيئة الله سبحانه، إنما تنفذ بمقتضى سنته العامة في تغيير أحوال الأمم، بتغييرهم ما في أنفسهم، وفي سلب ملك الظالمين، وإيراث الأرض للصالحين، وتأويل هذه الآيات وأمثالها مشاهد في كل زمان، وأين المبصرون؟

السُّنَّة التاسعة: إن طاعة الجنود للقائد في كل ما يأمر به وينهى عنه شرط في الظفر واستقامة الأمر وقوانين الجندية في هذا الزمان حتى عند الغربيين مبنية على طاعة الجيش لقواده في المنشط والمكره والمعقول وغير المعقول.

السُّنَّة العاشرة: إن الفئة القليلة قد تغلب بالصبر، والثبات، وطاعة القواد الفئة الكثيرة التي أعوزها الصبر والاتحاد مع طاعة القواد؛ لأن النصر مع الصابرين، أي جرت سنته بأن يكون النصر أثراً للثبات والصبر، وإن أهل الجزع والجبن هم أعوان لعدوهم على أنفسهم وهذا مشاهد في كل زمان.

السُّنَّة الحادية عشرة: إن الإيمان بالله، والتصديق بلقائه من أعظم أسباب الصبر والثبات في مواقف الجلاد والقتال.

السُّنَّة الثانية عشرة: إن التوجه إلى الله بالدعاء مفيد في القتال، كما يدل عليه قوله:

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ إذ عطفها بالفاء على آية الدعاء، وذلك معقول المعنى، فإن الدعاء هو آية الإيمان بالله والتصديق بلقائه.

السُّنَّة الثالثة عشرة: دفع الله للناس بعضهم ببعض من السنن العامة، وهو ما يعبر عنه علماء الحكمة في هذا العصر بتنازع البقاء، ويقولون: إن الحرب طبيعة في البشر لأنها من فروع سنة تنازع البقاء العامة، وأنت ترى في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ...﴾ [البقرة: 251]، ليس نصاً فيما يكون بالحرب والقتال خاصة، بل هو لكل نوع من أنواع التنازع بين الناس، الذي يقتضي المدافعة والمغالبة[1].

إن السنن الربانية ثابتة في الكون، وتقع على الإنسان في كل زمان ومكان، وسنة التدافع من السنن التي تتعلق بالتمكين تعلقاً وثيقاً «ولقد شاء الله رب العالمين أن يجري أمر هذا الدين ـ بل أمر هذا الكون ـ على السنن الجارية، لا على السنن الخارقة وذلك حتى لا يأتي جيل من أجيال المسلمين فيتقاعس، ويقول: لقد نصر الأولون بالخوارق، ولم تعد الخوارق تتنزل بعد ختم الرسالة، وانقطاع النبوات»[2].

وعلى المسلمين أن يدركوا سنن ربهم المبرزة لهم في كتاب الله تعالى، وفي سنة رسوله ﷺ حتى يصلوا إلى ما يرجون من عزة وتمكين «فإن التمكين لايأتي عفواً، ولاينزل اعتباطاً ولايخبط خبط عشواء. بل إن له قوانينه التي سجلها الله تعالى في كتابه الكريم؛ ليعرفها عباده المؤمنون، ويتعاملوا معها على بصيرة»[3].

إن الوقوف على معرفة سنن الله ودراستها أمر لابد منه للأمة الإسلامية وذلك حتى يستفيدوا منها، ولايصطدموا بها.

يقول حسن البنا: «لا تصادموا نواميس الكون فإنها غلابة، ولكن غالبوها، واستخدموها، وحوّلوا تيارها، واستعينوا ببعضها على بعض»[4].

إن سنة التدافع متعلقة بالتمكين تعلقاً وطيداً «فالله ـ تعالى ـ يعلم أن الشر متبجح، ولا يمكن أن يكون منصفاً، ولايمكن أن يدع الخير ينمو ـ مهما يسلك هذا الخير من طرق سلمية

---

(1) تفسير المنار (2/ 492 ـ 498).

(2) واقعنا المعاصر، ص 414.

(3) جيل النصر المنشود للدكتور/ يوسف القرضاوي، ص 15.

(4) الرسائل لحسن البنا، ص 161.

موادعة ـ فإن مجرد نمو الخير يحمل الخطورة على الشر، ومجرد وجود الحق يحمل الخطر على الباطل، ولابد أن يجنح الشر إلى العدوان، ولابد أن يدافع الباطل عن نفسه بمحاولة قتل الحق وخنقه بالقوة... فمن هنا يقع التدافع بين الحق وأهله، والباطل وحزبه. وتلك سنة الله. ولن تجد لسنة الله تبديلاً»[1].

«وهي سنة فطرية جارية بين الناس حفظاً لاستقامة حال العيش، واعتدالاً لميزان الحياة»[2].

لقد ورد تقرير هذه السنة الربانية في القرآن الكريم بصفة عامة ولكن جاء التنصيص عليها في آيتين كريمتين منه[3]:

الآية الأولى: قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الآية: 251].

الآية الثانية: قوله تعالى في سورة الحج: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الآية: 40]

والملاحظ أن آية البقرة تأتي بعد ذكر نموذج من نماذج الصراع بين الحق والباطل المتمثل هنا في طالوت وجنوده المؤمنين، وجالوت وأتباعه، ويذيل الله ـ تعالى ـ الآية بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: 251]، (مما يفيد أن دفع الفساد بهذا الطريق إنعام يعم الناس كلهم)[4].

وتأتي آية الحج بعد إعلان الله تعالى أنه يدافع عن أوليائه المؤمنين، وبعد إذنه لهم ـ سبحانه ـ بقتال عدوهم... ويختتم الآية بتقرير الله تعالى لقاعدة أساسية: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 40].

إن من الضروري للأمة الإسلامية أن تعي سنة الله تعالى في دفع الناس بعضهم ببعض: «لتدرك أن سنة الله تعالى في تدمير الباطل أن يقوم في الأرض حق يتمثل في أمة، ثم يقذف الله تعالى بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق»[5].

---

(1) في ظلال القرآن (2/ 742).

(2) انظر: التمكين للأمة الإسلامية لمحمد السيد محمد، ص 218.

(3) المصدر نفسه، ص 219.

(4) الفخر الرازي: مفاتيح الغيب (3/ 514).

(5) في ظلال القرآن (2/ 1091).

obeikandl.com

إن الحق يحتاج إلى عزائم تنهض به، وسواعد تمضي به، وقلوب تحنو عليه، وأعصاب ترتبط به.. إنه يحتاج إلى الطاقة البشرية، الطاقة القادرة القوية، والطاقة الواعية العاملة.. إنه يحتاج إلى جهد بشري، لأن هذه سنة الله تعالى في الحياة الدنيا، سنة ماضية[1]: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر: 43].

وهكذا يتضح أن سنة التدافع من أهم سنن الله تعالى في كونه وخلقه، وهي كذلك من أهم السنن المتعلقة بالتمكين للأمة الإسلامية. وما على الأمة إلا أن تعي هذه السُنَّة؛ لتستفيد منها وهي تعمل لعودة التمكين الذي وعدت به من الله رب العالمين[2].

ولذلك يهتم القرآن الكريم بتعليم المسلمين ما يهمهم من أمور دينهم ودنياهم ويبين بكل جلاء ووضوح سنن الله تعالى في الآفاق، والمجتمعات، والأمم، ويبين كيفية وقوع هذه السنن وما هي الأسباب التي تتخذ، فعندما أراد الله لبني إسرائيل أن ينصرهم على عدوهم، ويمكن لهم في الأرض سبق ذلك التمكين وذلك النصر أمور ذكرها الله تعالى في قصة طالوت عليه السلام.. وقد أجاد سيد قطب ـ رحمه الله ـ في بيان هذه الحقائق فقال: «والعبرة الكلية تبرز من القصة كلها، هي أن هذه الانتفاضة ـ انتفاضة العقيدة ـ على الرغم من كل ما اعتورها أمام التجربة الواقعة من نقص وضعف، ومن تخلي القوم عنها فوجاً بعد فوج في مراحل الطريق على الرغم من هذا كله، فإن ثبات حفنة قليلة من المؤمنين عليها قد حقق لبني إسرائيل نتائج ضخمة جداً. فقد كان فيها العز والنصر والتمكين، بعد الهزيمة المنكرة، والمهانة الفاضحة، والتشريد الطويل، والذل تحت أقدام المتسلطين، ومن خلال التجربة تبرز بضع عظات أخرى جزئية، كلها ذات قيمة للجماعة المسلمة في كل حين؛ من ذلك:

1 ـ إن الحماسة الجماعية قد تخدع القادة لو أخذوا بمظهرها؛ فيجب أن يضعوها على محك التجربة، قبل أن يخوضوا بها المعركة الحاسمة.

2 ـ إن اختبار الحماسة الظاهرة والاندفاع الغائر في نفوس الجماعات، ينبغي ألا يقف عند الابتلاء الأول:

أ ـ فإن كثرة بني إسرائيل هؤلاء قد تولوا بمجرد أن كتب عليهم القتال استجابة لطلبهم، ولم تبق إلا قلة مستمسكة بعهدها مع نبيهم. وهم الجنود الذين خرجوا مع طالوت.

---

(1) انظر: لقاء المؤمنين لعدنان النحوي (2/ 117).

(2) انظر: التمكين للأمة الإسلامية، ص 225.

ب ـ ومع هذا فقد سقطت كثرة هؤلاء الجنود في المرحلة الأولى وضعفوا أمام الامتحان الأول، وشربوا من النهر، ولم يجاوز معه إلا عدد قليل.

ج ـ وهذا القليل لم يثبت كذلك إلى النهاية، فأمام الهول الحي، أمام كثرة الأعداء وقوتهم، تهاوت العزائم، وزلزلت القلوب.

د ـ وأمام هذا التخاذل ثبتت القلة القليلة المختارة، اعتصمت بالله، ووثقت بوعده، وهي التي رجحت الكفة وتلقت النصر، واستحقت العز والتمكين.

لقد تمت تصفية بني إسرائيل ثلاث مرات. وخلاصة الخلاصة، هم الذين صدقوا الله في الجهاد فصدقهم الله وعده، وأنزل عليهم نصره.

3 ـ في ثنايا هذه التجربة تكمن عبرة القيادة الصالحة الحازمة المؤمنة، وكلها واضحة في قيادة طالوت، تبرز فيها:

أ ـ خبرته بالنفوس.

ب ـ عدم اغتراره بالحماسة الظاهرة.

ج ـ عدم اكتفائه بالتجربة الأولى.

د ـ ومحاولته اختبار الطاعة والعزيمة في نفوس جنوده قبل المعركة.

هـ ـ وفصله للذين ضعفوا، وتركهم وراءه.

و ـ ثم ـ وهذا هو الأهم ـ عدم تخاذله، وقد تضاءل جنوده تجربة بعد تجربة، ولم يثبت معه في النهاية إلا تلك الفئة المختارة فخاض بها المعركة.

4 ـ والعبرة الأخيرة التي تكمن في مصير المعركة. . أن القلب الذي يتصل بالله، تتغير موازينه وتصوراته؛ لأنه يرى الواقع الصغير المحدود بعين تمتد وراءه إلى الواقع الكبير الممتد الواصل، وإلى أصل الأمور كلها وراء الواقع الصغير المحدود، فهذه الفئة المؤمنة الصغيرة التي ثبتت وخاضت المعركة وتلقت النصر، كانت ترى من قلتها وكثرة عدوها، مايراه الآخرون الذين قالوا ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ ولكنها لم تحكم حكمهم على الموقف إنما حكمت حكماً آخر، فقالت: ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: 249] ثم اتجهت لربها تدعوه: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 250] وهي تحس أن ميزان القوى ليس في أيدي الكافرين، إنما هو في يد الله وحده، فطلبت منه النصر، ونالته من اليد التي تملكه وتعطيه.

obeikandl.com

وهكذا تتغير التصورات والموازين للأمور عند الاتصال بالله حقاً، وعندما يتحقق في القلب الإيمان الصحيح. وهكذا يثبت أن التعامل مع الواقع الظاهر للقلوب أصدق من التعامل مع الواقع الصغير الظاهر للعيون!

ولا نستوعب الإيحاءات التي تتضمنها القصة، فالنصوص القرآنية ـ كما علمتنا التجربة ـ تفصح عن إيحاءاتها لكل قلب بحسب ما هو فيه من الشأن، وبقدر حاجته الظاهرة فيه.

ويبقى لها رصيدها المذخور، تتفتح به على القلوب، في شتى المواقف، على قدر مقسوم»[1].

إن القرآن الكريم يحتاج منا إلى تأمل وتفكر عميق، وسنجد خبرات لا تعد ولا تحصى في كافة شؤون الحياة الدنيوية والأخروية، تمد العاملين من أجل الإسلام بالصبر والثبات.

إن دعاء القلة المؤمنة ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ليس خاصاً بها، بل يصلح لكل فئة مجاهدة صابرة، تقف أمام أعدائها، وهناك لفتة في ترتيب فقرات الدعاء الثلاثة: الصبر وتثبيت الأقدام والنصر، فكل فقرة مبنية على ما قبلها وترتيبها ترتيباً مرحلياً، فعند مواجهة الأعداء يحتاج المجاهد أولاً إلى الصبر ـ بمفهومه الشامل وميادينه المتعددة ـ فإذا صبر حاز المرحلة الثانية وهي ثباته، وتثبيت قدميه، ولن تثبت الأقدام إلا عند الصابرين، وإذا ثبتت الأقدام واستبسل المجاهد في القتال نصره الله على الأعداء، ونلاحظ في الدعاء الالتفات إلى أهمية الحالة النفسية، والناحية المعنوية، وتقديمها على الحالة الخارجية المادية، ولذلك قدم الصبر على المعركة، وعلى تثبيت الأقدام فيها، كما نلاحظ تناسقاً وتنسيقاً بين موقفين: اغترافهم من النهر اغترافاً، بينما يطلبون إفراغ الصبر عليهم إفراغاً، وصبه عليهم صباً، ولعل في هذا إشارة أخرى: فمن استعلى على الدنيا وحاجاتها، ولم تتعبده ملذاتها، وحرم نفسه من بعض متاعها ومباحاتها، ابتغاء وجه الله، عوَّضه الله عن ذلك، وأمده الله بمدد من عنده. فها هي القلة المؤمنة امتنعت من الشرب من النهر، واستعلت بذلك على متاع الدنيا ومباحاتها، فعوَّضهم الله عن ذلك الصبر؛ حيث أفرغه عليهم إفراغاً، ونلاحظ: أن داود عليه السلام خرج من وسط الجيش المجاهد، فمن ميدان المعركة بدأ أمره، وترقى في طريق القيادة والملك والحكمة والمسؤولية، وفي هذا إشارة إلى أن العمل هو الذي يخرج القادة، والميدان هو الذي يكشف عن المواهب، فالقائدان طالوت

(1) في ظلال القرآن (1/ 260 ـ 263).

وداود ظهرا من وسط الناس، وقدمهما للناس الميدان والعمل والواقع، فهذه هي طريقة القادة الذين يقودون الأمة إلى طريق النصر والتمكين[1].

ومن حكمة الله تعالى في قتل داود لجالوت، أن داود كان فتى صغيراً من بني إسرائيل. وجالوت كان ملكاً قوياً وقائداً مخوفاً... ولكن الله شاء أن يرى القوم وقتذاك أن الأمور لا تجري بظواهرها، إنما تجري بحقائقها، وحقائقها يعلمها هو. ومقاديرها في يده وحده، فليس عليهم إلا أن ينهضوا بواجباتهم، ويفوا الله بعهدهم، ثم يكون ما يريده الله، بالشكل الذي يريده.

وقد أراد أن يجعل مصرع هذا الجبار الغشوم على يد هذا الفتى الصغير، ليرى الناس أن الجبابرة الذين يرهبونهم ضعاف يغلبهم الفتية الصغار حين يشاء الله أن يقتلهم. إن انتصار بني إسرائيل على جيش جالوت نوع من أنواع التمكين الذي ذكره الله تعالى في كتابه الكريم، إن النظرة المتأملة للقرآن الكريم تكسب الذين يسعون لتحكيم شرع رب العالمين تجارب بشرية ضخمة، وتمدهم بتجارب الموكب الإيماني كله في جميع مراحله، وتورث أجيال الأمة ميراث الأنبياء والمرسلين في نظرتهم للواحد الديان، والحياة، والكون، وحقيقة الإنسان ومناهج التغيير التي خاضوها في هذه الحياة.

(1) انظر: مع قصص السابقين في القرآن (1/ 332).

obeikandl.com

المبحث الرابع

الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ مع قومه

إن انتصار أهل الإيمان على أهل الكفر في المعارك القتالية، يظهر جلياً في سيرة النبيّ ﷺ وفي عهد الخلفاء الراشدين وفي تاريخ الأمة المجيدة.

إن النبيّ ﷺ ـ بعد استقراره في المدينة ـ شرع يخطط للأعمال الجهادية، ويحث أصحابه على فنون القتال، ويرسل السرايا والبعوث؛ ليضيق على حركة قريش التجارية، ويؤدب القبائل المشركة، ويؤمن دولة الإسلام من أعدائها، ويخوِّف المتربصين بالمسلمين، ويهيئ أصحابه للمهمات التي تنتظرهم بعد أن أذن الله لهم بالقتال، فبعث ﷺ طائفة من البعوث والسرايا حققت بعض الأهداف الاستراتيجية من أهمها:

1 ـ **الاستطلاع**: حتى يتعرف المسلمون على الطرق المحيطة بالمدينة والمؤدية إلى مكة خاصة الطرق الحيوية التجارية لقريش في الجزيرة، واهتموا بالتعرف على قبائل المنطقة وموادعة بعضها.

2 ـ **الحصار الاقتصادي**: على قريش ومنعها من مواصلة تجارتها مع الشام ما أمكن إلى ذلك سبيل، ومنع الحصار الاقتصادي المتوقع على المدينة من قبل القبائل المحيطة بها، وذلك بعقد أحلاف مع بعضها وقتال البعض الآخر ومفاجئة كل تجمع يخشى منه ضرر على الدولة المسلمة، فكان ﷺ يقظاً سريع الحركة، ما يكاد يسمع بتجمع للمشركين يهدده إلا فاجأهم وشتت شملهم، وألقى الرعب في قلوبهم، فالهجوم عنده أقوى وسائل الدفاع.

3 ـ لقد أثبتت **حركة السرايا والبعوث** أن المسلمين أصبحوا قوة يحسب لها حسابها من قبل المشركين من قريش، والقبائل المجاورة، واضطرت بعض القبائل إلى مهادنة وموادعة المسلمين. هذه بعض الأهداف التي حققتها تلك السرايا والبعوث.

إن معارك النبيّ ﷺ ضد المشركين وانتصاره عليهم نوع من أنواع التمكين ومن أهم هذه المعارك: بدر، والخندق، ففي معركة بدر بيَّن تعالى أن حقيقة النصر من الله تعالى، قال

تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: 123].

إن الله تعالى بين أن النصر لا يكون إلا من عند الله عز وجل، والمعنى ليس النصر إلا من عند الله دون غيره، (والعزيز) أي ذو العزة التي لاترام[1]، (والحكيم) أي الحكيم فيما شرعه من قتال الكفار مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم بحوله وقوته سبحانه وتعالى[2].

ويستفاد من هاتين الآيتين: تعليم المؤمنين الاعتماد على الله وحده، وتفويض أمورهم إليه من التأكيد على أن النصر إنما هو من عند الله وحده، وليس من الملائكة أو غيرهم، فالأسباب يجب أن يأخذ بها المسلمون لكن يجب ألا يغتروا بها وأن يكون اعتمادهم على خالق الأسباب والوسائل؛ حتى يمدهم الله بنصره وتوفيقه. ثم بين سبحانه مظاهر فضله على المؤمنين وأن النصر الذي كان في بدر وأن قتلهم المشركين، ورمي النبيّ ﷺ المشركين بالتراب يوم بدر إنما كان في الحقيقة بتوفيق الله أولاً وبفضله ومعونته، وبهذه الآية الكريمة يربي القرآن المسلمين ويعلمهم الاعتماد على الله وحده فقال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: 17].

ولما بين سبحانه وتعالى أن النصر كان من عنده؛ وضَّح بعض الحِكَم من ذلك النصر:

فقال تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عمران: 127، 128].

وأمر سبحانه المؤمنين أن يتذكروا دائماً تلك النعمة العظيمة، نعمة النصر في بدر، ولا ينسوا من أذهانهم كيف كانت حالتهم قبل النصر.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: 26].

لقد كانت نتائج غزوة بدر على المسلمين عظيمة، ومن أهم تلك النتائج:

1 ـ ضعف موقف المشركين واهتزاز هيبتهم أمام قبائل الجزيرة العربية.

2 ـ ظهور قوة جديدة في الجزيرة أصبح الجميع يحسب لها حسابها.

3 ـ بدأ النفاق في المدينة يظهر جلياً بعد بدر، واستمر المنافقون في أذاهم للمسلمين.

---

(1) انظر: تفسير ابن كثير (1/ 411).

(2) المصدر نفسه (2/ 303).

4 ـ شرع اليهود في إظهار عداوتهم للمسلمين بعد بدر حسداً وبغياً، وأول من أظهر بغيه يهود بني قينقاع.

5 ـ أصبحت الحرب معلنة بين المسلمين وقريش ولم تنته إلا بفتح مكة.

6 ـ تشجيع كثير من الناس لدخول الإسلام، ودخلت المدينة في طور جديد من الجهاد المسلح.

7 ـ خصَّ الله أهل بدر من الصحابة الكرام بالمغفرة، وشرَّف من حضرها من الملائكة وأصبحت غزوة بدر شرفاً ومنقبة لمن حضرها من المسلمين والملائكة.

أما غزوة الخندق فقد تحدث القرآن عنها وبين أموراً، من أهمها:

1 ـ تذكير المؤمنين بنعم الله عليهم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: 9].

2 ـ التصوير البديع لما أصاب المسلمين من هم بسبب إحاطة الأحزاب بالمدينة: ﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: 10].

3 ـ الكشف عن نوايا المنافقين السيئة، وأخلاقهم الذميمة، وجبنهم الخالع ومعاذيرهم الباطلة ونقضهم للعهود، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا﴾ [الأحزاب: 12].

4 ـ حضّ المؤمنين في كل زمان ومكان على التأسي برسول الله ﷺ في أقواله، وأفعاله، وجهاده، وكل أحواله؛ استجابة لقوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: 21]

5 ـ مدح المؤمنين على مواقفهم النبيلة وهم يواجهون جيوش الأحزاب بإيمان صادق، وفاء بعهد الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا﴾ [الأحزاب: 22].

6 ـ بيان سنة من سنن الله التي لا تتخلف وهو جعل العاقبة للمؤمنين والهزيمة لأعدائهم قال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا﴾ [الأحزاب: 25].

7 ـ امتنانه سبحانه على عباده المؤمنين حيث نصرهم على بني قريظة، وهم في حصونهم المنيعة بدون قتال يذكر حيث ألقى ـ سبحانه ـ الرعب في قلوبهم فنزلوا على حكم الله ورسوله[1]. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب: 26 ـ 27]

لقد كانت غزوة الأحزاب من الغزوات الهامة التي خاضها المسلمون ضد أعدائهم وحققوا فيها نتائج مهمة:

1 ـ انتصار المسلمين، وانهزام أعدائهم، وتفرقهم، ورجوعهم مدحورين بغيظهم قد خابت أمانيهم وآمالهم.

2 ـ تغير الموقف لمصلحة المسلمين، فانتقلوا من موقف الدفاع إلى الهجوم، وقد أشار إلى ذلك النبيّ ﷺ حيث قال: «**الآن نغزوهم ولا يغزوننا نحن نسير إليهم**»[2].

3 ـ كشفت هذه الغزوة خبث يهود بني قريظة وحقدهم على المسلمين وتربص الدوائر بهم. فقد نقضوا عهدهم مع النبيّ ﷺ في أحلك الظروف وأصعبها.

4 ـ كشفت غزوة الأحزاب حقيقة صدق إيمان المسلمين، وحقيقة المنافقين، وحقيقة يهود بني قريظة، فكان الابتلاء بغزوة الأحزاب تمحيصاً للمسلمين وإظهاراً لحقيقة المنافقين و ليهود.

5 ـ كانت غزوة بني قريظة نتيجة من نتائج غزوة الأحزاب حيث تم فيها محاسبة يهود بني قريظة الذين نقضوا العهد مع النبيّ ﷺ في أحلك الظروف وأقساها.

حروب الردة:

عندما توفي رسول الله ﷺ ارتدت أحياء كثيرة من العرب، وظهر النفاق، وقد كان أهل الردة على قسمين:

1 ـ القسم الأول: التارك للدين بالمرة، وهم بنو طيىء، وأسد، ومن تبعهم من غطفان وعبس وذبيان وفزارة، اتبعوا طليحة بن خويلد الأسدي مدعي النبوة في بني أسد، وبنو حنيفة

---

(1) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (1/ 490، 491).

(2) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق (5/ 58) رقم 4110.

الذين اتبعوا مسيلمة الكذاب، وأهل اليمن الذين اتبعوا الأسود العنسي، وكثير غيرهم، وهؤلاء ارتدوا عن الدين، ونابذوا الملّة، واتبعوا مدعي النبوة في الجزيرة، ومنهم من ترك الصلاة والزكاة وعاد إلى ما كان عليه من الجاهلية.

2 ـ **القسم الثاني**: هم الذين فرقوا بين الصلاة والزكاة، فأنكروا فرض الزكاة ووجوب أدائها وهم بعض بني تميم، الذين يرأسهم مالك بن نويرة، وبنو هوازن وغيرهم.

وهذا القسم هو الذي وقع فيه الخلاف، فثبت أبو بكر ﵁ ثم وافقه جميع الصحابة على قتال جميع المرتدين ومانعي الزكاة[1].

وخاض الصديق معارك طاحنة في الجزيرة العربية، وهزم جيوش المرتدين، ونتج عن تلك المعارك نتائج مهمة من أهمها:

1 ـ ظهرت أهمية القاعدة الصلبة في المجتمع الإسلامي، وأثبتت حروب الردة أن هناك معادن أصيلة وعناصر قوية تشكلت منها القاعدة الصلبة في المدينة، والتي لم تكن رخوة أو هشة، أو ساذجة، بل كانت قوية واعية تدرك حقيقة نفسها، وحقيقة عدوها، وتستوعب أبعاد المخاطر من حولها، وتخطط بانتباه ويقظة كاملة في مواجهة كل الصعاب؛ ولهذا أزاحت كل العراقيل والصعاب التي وضعت أمامها، لقد التفت هذه القاعدة حول الصدِّيق ﵁، فقادهم لحفظ الدولة، وتقوية دعائمها بعد رسول الله ﷺ وكان لهذه القاعدة أثر في الحشد الذي تم لمواجهة أحداث الردة، وكان لهذه القاعدة دور في لم شمل الناس من حولهم، وعلى عاتقهم تم حفظ كيان الأمة، وحرصوا على بقائها وتنميتها، وضحوا بالمهج والأموال، ولعل موقفهم في حروب الردة وخصوصاً في حرب ردة اليمامة ـ وهي أعظمها ـ بين أهميتهم في بقاء الدولة واستمرارها حيث تميز المهاجرون والأنصار بإيمانهم وثباتهم وصبرهم وكان القتل في المهاجرين والأنصار قد استحر فيهم، وأكرمهم الله بالنصر على عدوهم بسبب صدقهم وإخلاصهم وثباتهم.

2 ـ لقد تكسرت وتحطمت قوى الشر من يهود ونصارى، ووثنيين الذين تستروا تحت شعارات عدة أمام صلابة التوحيد، وحقيقة التصور السليم، والقيادة الحكيمة، وتركت لنا تلك الأحداث الجسيمة ثروة ضخمة في معاملة المرتدين وأحكامهم، ومعاملة الخارجين عن دولة الإسلام العظيمة.

---

(1) انظر: الحكمة في الدعوة إلى الله، ص 220.

3 ـ استطاعت القيادة الإسلامية بزعامة الصدِّيق رضي الله عنه أن تجعل من الجزيرة العربية قاعدة الانطلاق لفتح العالم أجمع، وأصبحت الجزيرة هي النبع الذي يتدفق منه الإسلام ليصل إلى أصقاع الأرض بواسطة رجال عركتهم الحياة، وأصبحوا من أهل الخبرات المتعددة في مجالات التربية والتعليم، والجهاد، وفي إقامة شرع الله الشامل لإسعاد بني الإنسان حيثما كانوا.

4 ـ أصبحت الجزيرة العربية تحت نظام واحد وقيادة واحدة بعد تاريخ طويل من التمزق والفرقة والشتات؛ بسبب الصراع القبلي والأطماع الفردية، والنزعات العشائرية، وتحقق مفهوم الأمة على أسس عقدية وفكرية، ومنهجية ربانية وانصهرت القبائل في كيان الأمة ذات الفكرة الواحدة، والقيادة الواحدة، وأصبحت جزءاً من كيانها المتماسك.

5 ـ كانت حروب الردة إعداداً ربانياً للفتوحات الإسلامية حيث تميزت الرايات وظهرت القدرات، وتفجرت الطاقات، واكتشفت قيادات ميدانية، وتفنن القادة في الأساليب والخطط الحربية، وبرزت مؤهلات الجندية الصادقة المطيعة المنضبطة الواعية التي تقاتل وهي تعلم على ماذا تقاتل، وتقدم كل شيء وهي تعلم من أجل ماذا تضحي وتبذل، ولذا كان الأداء فائقاً والتفاني عظيماً[1].

6 ـ وضع الصِّدِّيق التقسيم الإداري، بعد انتصاره في حروب الردة، لدولة الإسلام على نظام الولايات وهي: مكة وكان أميرها عتاب بن أسيد، والطائف أميرها عثمان بن أبي العاص، وصنعاء أميرها المهاجر بن أبي أمية، وحضرموت وواليها زياد بن لبيد، وخولان وواليها يعلى بن أمية، وزبيد ورقع وواليها أبو موسى الأشعري، أما نجد اليمن فأميرها معاذ ابن جبل، ونجران وواليها جرير بن عبد الله، وجرش وواليها عبد الله بن ثور، والبحرين وواليها العلاء بن الحضرمي، وعمان وواليها حذيفة القلعاني، واليمامة وواليها سليط بن قيس[2].

الفتوحات الإسلامية:

تحركت جيوش المسلمين بقيادة الصدِّيق بعد حروب الردة لنشر الإسلام في الآفاق، فكانت حروب العراق بقيادة خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة، وكانت معارك الروم بقيادة أبي

(1) انظر: تاريخ صدر الإسلام للشجاع، ص 141 ـ 145.
(2) إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء للشيخ محمد الخضري، ص 59، 60.

عبيدة بن الجراح. وبعد وفاة الصدِّيق تولى الخلافة عمر رضي الله عنه والذي تحقق في زمن خلافته انتصار المسلمين الساحق على الروم في اليرموك، وانتصارهم على الفرس في المدائن وبذلك فتحت إمبراطورية الروم في بلاد الشام، وإمبراطورية الأكاسرة في بلاد الفرس أمام دعاة الإسلام يقدمون للأمم دين الله الذي ارتضاه لعباده.

وسار المسلمون على هدى أسلافهم في خوض المعارك الضارية ضد أعداء الإسلام، فسجل لنا التاريخ انتصار المسلمين على النصارى في معركة الزلاقة عام 974 هـ بقيادة يوسف ابن تاشفين قائد دولة المرابطين، وانتصارهم على النصارى في معركة حطين عام 385 هـ وفتحت بعدها القدس بقيادة صلاح الدين الأيوبي. وكان انتصار المسلمين على أعدائهم يحدث عندما يأخذ المسلمون بأسباب التمكين وشروطه وسننه التي لا تحابي ولا ترحم ولا تجامل، إن هذا النوع من التمكين يتجدد كلما حققت الأمة صفات جيل التمكين سواء على أفراد الأمة أم قادتها.

obeikandl.com